



البلد جزيرة وجَزَر

- I - الذي يبحث عن اسباب للتفاوت بقدره البلاد على تجاوز الصعاب، ما عليه الا التوجه مساء الجمعة او السبت الى وسط بيروت. لكن الشاهد حتى يشهد يتوجب عليه ان يفكر في الامر باكراً فينطلق في اتجاه الوسط قبل ان تبدأ عجة السير الليلية تأسر شارع المصارف وساحة رياض الصلح وشارع الامير بشير. واذا كان ينوي تناول العشاء بالاضافة الى الفرجة، فمن الافضل له ان يحتاط منذ الصباح، فيحجز طاولة له ولصاحبه في احد هذه المطاعم المزدهمة على الدوام رغم تكاثر عددها باطراد.

بعد شارع مونو، ها هو اذاً وسط بيروت، وبالتحديد محيط شارع المعرض يؤكد النظرية التسويقية التي تقول ان افتتاح متجر جَزَر قرب متجر جَزَر يزيد الاقبال على الاثنين معاً، فضلاً عن الثالث الذي لن يتأخر في اللحاق بهما، فالرابع والخامس... مع الفرق ان شارع المعرض، مثل شارع مونو، لا يبيع الجَزَر، بل يقدمه بالاطنان مع المقبلات التي ترافق شتى انواع المشروبات وتسبق اطباق العشاء او تحلّ مكانها. لم احسب كميات الجَزَر التي يستهلكها شارع المعرض ولا ادري ان كانت احصاءات البنك المركزي تلحظها، لكن المقاربة المحض تجريبية توحي ان الزيادة خيالية.

ففي غضون اشهر، احتلت المطاعم والحانات معظم المنطقة بين اللعازرية وشارع فيغان، وتلك هي من دون شك ظاهرة سنة ٢٠٠١ في بيروت: تحوّل وسط العاصمة حياً مركزياً للصناعة السياحية، وان لم يؤدِ نشوء هذا الحي الى القضاء على نمو شارع مونو وحي اليسوعية، حيث لم يتوقف ايضاً تكاثر الحانات والمطاعم. المطاعم الى زيادة، والزبائن كذلك. فالظاهرة هنا: شارع المعرض مكتظاً بالمشاة، لا همّ عندهم غير ايجاد الطاولة التي ستروي عطشهم. الازمة الاقتصادية بعيدة، وحتى مجلس النواب الذي يتوسط ميناء الحي يبدو في عالم آخر. حي كامل يتلذذ بلهوه. لمّ لا؟ الظاهرة ليست فريدة. فعندما يصير الشارع حديقة عامة للحواس، لا تعود الجاذبية مرتبطة بمطعم واحد او حانة، ويصبح للمكان العام سحره الذي يتجاوز سحر الامكنة الخاصة التي يتألف منها. شاهدنا الامر نفسه مع شارع مونو في التسعينات، ولا ريب ان القدامى اختبروا هذا الاحساس في الحمراء او في منطقة الفنادق. لكن الظاهرة، وان تكن مكررة، تبقى لافتة، فالسحر يغديه في هذه الحال زهول لا ينضب من رؤية مدينة تعود الى الحياة.

- II - الكثير من رواد "البلد" لم يبلغوا سنّاً تجعلهم يتحسّسون حجم التغيّر الذي اصاب المكان، وهو اصلاً تغيّر مزدوج: مقارنة بدمار الوسط التجاري خلال الحرب ولكن ايضاً - بالنسبة الى المخضرمين - مقارنة بوظيفته الاقتصادية وهويته السوسولوجية قبل الحرب. غير ان حتى الذين لم يعرفوا الوسط "قبل" لا يغيب عنهم الشعور بأن ما يشاهدونه هو فعل قيامة. ولا ريب ان استعادة ألق الهندسة العائدة الى العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، بفضل اعمال الترميم، تؤكد هذا الشعور بالقيامة، خصوصاً ان خراب الحرب والسلم معاً لا يزال ماثلاً امام العين على بعد بضعة عشرات من الامتار، تشهد عليه حال التصحّر المستديمة في ساحة الشهداء الفارغة الا من مينيّن وساحة دباس التي ازيلت بالكامل باستثناء كنيسة الارمن مثلما ازيل حي الباشورة جنوب موقف ساحة رياض الصلح، ما عدا بناء واحد جميل يثير لون طلائه الجديد (المترجح بين الزهري



والسلموني) سجلاً لا ينتهي بين محبي الاحجار القديمة. في شارع المعرض كما في شارع فوش والنبني لا سجل ولحسن الحظ. الاجماع قائم على نجاح الترميم الذي اعاد الى وسط بيروت رونقاً كان منسياً. والاطار الهندسي المستعاد، اذ يستضيف هذه الحركة الترفيهية السياحية الدائمة، يجعل من "البلد" اجمل مركز مديني في الشرق الاوسط، بل واحداً من اجمل الاحياء المركزية في العالم، يمكن مقارنته من دون خجل مع بعض اجزاء الـ"شنترو ستوريكو" في روما او محيط سان ستيفان في فيينا او احياء الـ"موفيدا"، حركة الليل في مدريد الثمانينات.

- III - قطعاً، تستحق شركة "سوليدير" الثناء على هذا النجاح. لكن الثناء على الانجاز لا يمكن ان ينسحب، كما يتسرع البعض في القول، ثناءً على التخطيط. فالدرس الكبير، بل التاريخي، هو ان المدينة فاجأت الجميع، الذين خططوا لاعادة اعمارها والذين ثاروا على هذا التخطيط. ولا بد من التنبيه عند هذا الحد من تطور المدينة ان ما عاد الى الحياة في وسط بيروت لا يشبه بشيء التصميم العام الذي اثار زوابع الانتقاد في بداية التسعينات. لنتذكر الابراج الشاهقة في الماكيث الاولى، ومركز التجارة العالمي والساحة البحرية والجزيرة الاصطناعية، والجادة العريضة التي كان يفترض ان تحل مكان ساحة الشهداء وتفوق الشانزليزيه عرضاً، وخنادق الطرق السريعة، وكل ما سقط من المشروع المقدم صيف ١٩٩١.

ولنتذكر ايضاً كل ما تم ازالته افساحاً لهذه الرؤية فيقي حتى الآن مساحة فارغة وفي احسن الاحوال موقفاً شاسعاً للسيارات. ولكن اهم ما يجب تذكره هو ان بعضاً من الذي اضحى مفخرة لـ"سوليدير" كان معرضاً للهدم ايضاً قبل ان يتم انقاذه بفعل تعديل المخطط التوجيهي. وكانت التعديلات اجريت سعياً لامتصاص الانتقادات وتخفيفاً لحجم المشروع وكلفته. والحق ان فضل "سوليدير" يقع تحديداً في تخليها عن المخطط الاول الذي كان وراء انشائها، وتنبهها بعد تشكيلها الرسمي برئاسة ناصر الشماخ الى القيمة المضافة التي تعطيها لمشروع الوسط الابنية القديمة المتبقية. ولكن، رغم تأقلم "سوليدير" مع الاعتبارات الثقافية والاثريّة، لم يكن لاحد ان يتوقع ان تصبح السياحة الوظيفية الاولى للوسط الجديد.

وأبرز دليل على ذلك ان مبنى اللعازرية الواسع الذي اعاد اليه الترميم ميزات معمارية مأنوسة، يبقى شبه خال من المكاتب مهجوراً في النهار، فيما يستقبل ثلاثة مطاعم رائجة. ذاك هو الدرس: لا بد من مخططات توجيهية، ومن مؤسسات عامة، ولو بتمويل خاص، لتشرف على تنفيذ ما يقرر وفرض احترام الانظمة المتفق عليها، وقد ابلت "سوليدير" احسن بلاء في هذه الوظيفة، وان تكن لا تزال محافظة بعض الشيء في سياستها التسويقية.

غير ان هوية الامكنة تصنعها الحياة، والمدينة تخضع لمنطق يتجاوز كل تخطيط. منطق المدينة هو تحديداً ما يبدد الخوف من ان يبقى وسط بيروت وفقاً على الفئات الميسورة من المجتمع اللبناني التي ترتاد المطاعم والحانات الآن، وهو بالمناسبة المؤشر الى صمود الطبقة الوسطى، رغم نعيها المتكرر. ومثلما بدأ يحصل في شارع مونو ما يمكن تسميته "دمقرطة" الترفيه، او اتساعه نحو البرجوازية الصغيرة، فان وسط بيروت سيستقطب بالضرورة، وبصورة اسرع من المتوقع، فئات اكثر تنوعاً من التي تقبل عليه رهنأ فتجعله جزيرة من الرخاء شبه معزولة. بل يمكن رصد بداية عودة الديموقراطية المدينية من خلال فراغ ساحة الشهداء حيث يجتمع حول شجرة الميلاد والنصب الموقت لدار الايتام الاسلامية الكثير من المواطنين الذين يستثمون في نزهة عائلية بعضاً من قلب عاصمتهم.

وفي هذه النزهة الى فراغ ساحة الشهداء ما يفترض ان يدفع "سوليدير" الى خطوة اضافية نحو تعديل جديد للمخطط التوجيهي. فباتنظار ان يطول الاعمار اطراف ساحة الشهداء، وفي ضوء ما آل اليه الوسط، ليس من الحكمة اعادة "الحديقة الحميدية" الى قلب البرج؟ وفي ذلك انصاف ليس فقط



لصحة اهل المدينة، بل ايضاً لتاريخها العثماني الذي يستأهل التكريم بقدر ما تستأمله الآثار الرومانية، وربما اكثر. حديقة حميدية في قلب بيروت، تحتها موقف ان شاؤوا، وحولها مبان، وفي داخلها - لم لا؟ - مساحة لزراعة الجَزَر حتى تكتمل المنفعة بالتمويل الذاتي، ولكن حديقة مفتوحة للجميع - بعكس ما فعل وجهاء بيروت في العصر العثماني المتأخر حين فرضوا رسم دخول اليها. هكذا يعود الوسط الى بداياته، والبلد الى كل ابنائه.

سمير قصير



Id-Reference	01-Pr-000736	
Media	(Support)	HC
Title		البلد جزيرة وجزر
Subtitle		
Section		مرور الكلام
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠١/١٢/٣١ 31/12/2001
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	لبنان - روما - فيينا - شانزليزيه - ساحة شهداء
	Locations	١٩٩١ - ٢٠٠١
	Dates	لبنان - وسط بيروت - شارع مونو - شركة سوليدير - ساحة شهداء - آثار رومانية - قلب بيروت - عصر عثماني - شرق أوسط
	Themes	
Subject		